الديدبان

قصة بقلم أحمد يونس

كم من العمر يا ترى تبلغ هذه الومس ؟ لعلها قد تجاوزت الاربعين! لكن قبسا كابيا من الشباب ما زال يطل من عينيها الذابلتين ! لعلها لم تتاهز الثلاثين بعد ! من الصعب حقا أن يقدر المرء أعمار الاشقياء !

أطلب كأسا من النبيذ ، وأستدير في جلستي لكي أراها جيدا . لقد شربت كثيرا هذه الليلة . لكنني لست مخمورا على كل حال .

شفتاها تبدوان كشقتي تينة مجففة . خصلة من شعرها الفاحم تتدلى على جبينها العريض . عيناها غائرتان في أكوام من الشحم كبركتين عكرتين ، ترقدان تحت أشعة القمر الرمادية ، وتحيط بهما من كل جانب أحراش من التجاعيد والبثور .

أشعل سيجارة ، وأكتشف أنها مثقوبة ، فأطفئها ، وأشعل غيرها.

تظهر على شاشة التليفزيون مذيعة حسناء تعلن عن نوع جديد من الصابون . وعبر باب الحانة الزجاجي أبصر ستائر المطر المسدلة ، واشم في شيء من المتعة رائحة الارض المبتلة . قوافل المارة تتدافع تحت عدد كبير من المظريات . الى أين يذهب كل هؤلاء ؟

سائحة أميركية عجوز ، شاب من الجنس الثالث ، فتاتان يابانيتان ترتديان زيا باريسيا ، جندي ، كلب ضال .

كلمت متناثرة لا تتحول الى عبارات مفهومة ، وانما تظل دائما تمتمة غريبة معقدة .

أين رأيت هذا الرجل ؟ من المؤكد انني قد عرفته من قبل ! انني اذكره ، ولكنني لا أدري متى رأيته لاول مرة ! لعله أحد رواد هذه الحانة ؟ لا . لعله أحد نزلاء الفندق الذي أعيش فيه ؟ لا ، لا اظن . الحقيقة انني لست أدري .

يوم عاصف كئيب . أجل ، كان يوما عاصفا كئيبا !

عدت الى الفندق أخيرا ، بعد أن سرت طويلا تحت ضفائر المطر الغزير . طلبت مفتاح الغرفة من دونيا كارينا . القيت السلام على اطفالها . سألتهم عن دراستهم . أجابوا في غير مبالاة انها على ما يرام . كانت وجوههم تبدو مطموسة كنقوش باهتة على جدار معبد أثري عتيق .

استيقظت مبكرا ، وسألت دونيا كارينا أن تحضر لي طعام الافطار في حجرتي . لم أكن قد ارتديت ملابسي تماما عندما دخلت . اخبرتني أن رساما مجريا قد أتى الى الفندق ، وأنه سوف يقيم في الغرفة الثالثة والعشرين . لم أجب .

ماذا فعلت يا ترى قبل أن أعود الى الفندق في تلك الليلة المطيرة؟ لست اذكر ! من المؤكد أنني لم أرتكب جريمة شنعاء . كثيرا ما تراودني أفكار شريرة ! لكنني انتصر عليها غالبا . من المؤكد أيضا انني لم أقم بعمل عظيم . كثيرا ما أحس بان علي أن أقوم بعمل عظيم ! لكنني في النهاية أشعر بالكسل ويغلبني السأم .

لا شك أن الخمر قد بدأ يعبث براسي .. كأس واحدة من النبيذ الاندلسي العتق ، كأس أخيرة . لا بد أن أكف عن الشراب ! كأس واحدة فقط .

أين رأيت هذا الرجل ؟ أين ؟ انني اذكر منكبيه العريضين ، وملامحه القاسية التي لا تتغير أبدا ، اذكر رأسه الضخم المستدير ، وعصاه الغليظة .

في المساء خرجت لالقى صديقتي الهولندية . شوارع مدريد فسيحة خاوية ، وميدان باب الشمس يبدو كبقعة من النور تتسلق دياجير الظلام . أشباح تائهة .

أين رأيت هذا الرجل ؟

سيارات منطلقة .

أين رأيته يا ترى ! الشيخ مصطفى . أجل انه الشيخ مصطفى . بمنكبيه العريضين ، وملامحه القاسية التي لا تتغير أبدا ، برأسه الضخم المستدير ، وعصاه الغليظة .

مجموعة من الفتيان والفتيات يرقصون في سعادة ! أردت أن أشاركهم رقصتهم المرحة . لكن الشيخ مصطفى أصر على الا أفعل .

قالت أمي : يجب أن تطيع الشيخ مصطفى . كان يعمل كحارس لاحد المخازن . كان يعيش في حي السيدة زينب . كل شيء ممنوع ! كل الاشياء التي لم تكن محرمة كانت مستحيلة .

انه يطاردني . لا شك انه يطاردني . نظرته الساخرة ، ووقع قدميه المتعثرتين خلفي ، خلفي دائما .

كأس من النبيذ ... كم كأسا شربت هذه الليلة ؟ ماذا يهم ؟

كانت لاورا تنتظر عند باب المرقص الصغير الذي يقع في حي السلامانكا . كانت جميلة حقا .

الزحام ، والدخان ، والموسيقى الصاخبة ، وجسد لاورا البض الذي تراخى بين ذراعي ، وأقداح النبيذ التي لا تنتهي .

سألتني اذا كنت أحبها ! راحت أجساد الراقصين تدور في جنون ! أجبتها بانني لم أوجه هذا السؤال الي نفسي مطلقا . ارتفع صوت المغنية الرخيم : اليوم أحبك أكثر من الامس .

ولكن أقل ، أقل بكثير من الغد .

قبلني ، قبلني كثيرا ، كما لو كانت

هذه الليلة آخر مرة .

تجهم وجه لاورا وبدت عيناها كبحيرتين سحيقتين قد دفنت فيهما الاف الاساطير .

قلت : أعتقد انني أحبك يا لاورا ، كنت أكذب .

رأيت شابا يقبل عنق صديقته . أردت أن أفعل مثله ، لكن الشيخ مصطفى كان يقف ورائي ، كان يراقبني بعينيه المتحجرتين .

كان أهل حي السيدة زينب يكبرون الشيخ مصطفى ، وكانوا يعدونه رجلا فاضلا . وقد اعتقد البعض انه أحد الاولياء الصالحين .

انك تروقينني يا لاورا . أحسست أن قطعة من الثلج قد تجمدت حول قلبي . انك تروقينني يا لاورا . يروقني صوتك البللوري الرائق ، عيناك العميقتان ، تروقني يداك الناعمتان ، قدماك الصغيرتان، تروقينني عندما تشعلين سيجارتي في وداعة ، عندما ترتعدين من البرد، عندما تشوب وجهك الناصع حمرة خفيفة ، عندما يتخشب جسدك الساحر في قمة اللذة .

قطرات النبيذ تتابع مرة في حلقي . ماذا دها لساني ؟ انني لا أشعر ! سوف يغلقون الحانة . وسوف أمضي كما أفعل كل ليلة . الطريق الموحشة . ألمح تاكسي ، فادعوه .

تنطلق السيارة بي وكأنها ذاهبة الى الجحيم ، أضواء المحال تتجمع على البعد ، فتبدو ككتلة من اللهب .

الى أين تذهب بي أيها السائق ؟ توقف . انني آمرك أن تتوقف.

ماذا تقول يا سيدي ؟

أقول ... معذرة . انني لا أقول شيئا .

طلائع الفجر تنبثق من خلف الابنية العالية . وصياح الديكة يفزع مصابيح الشوارع فتنطفىء .

ماذا تريد مني أيها الشيخ ؟ كيف أفر منك ؟ لا تطاردني . لا ، انني لن أطيعك .

ليتني أستطيع أن أقول لك انني ساحبك دائما . آه يا صديقتي المسكينة ! ليتني أستطيع أن أؤكد لك انني لن أنساك ما حييت . ليتني أستطيع أن أهمس في أذنيك انني سأذود عنك ، وأصارع الايام من أجلك ، ليتني أستطيع أن أعيد الفرحة الى عينيك ، أن أزرع الابتسامة على شفتيك من جديد . ليتني أستطيع أن أقسم لك انه لن يفرق بيننا سوى الموت . لكنني ـ يا صديقتي لاورا ـ لا أستطيع ، لا أستطيع .

القاهرة

أحمد يونس